للدكتور علي ابراهيم باشا
عميد كلية الطب ووكيل الجامعة المصرية ومدير مستشفياتها

١ — الماضي

لعلَّه لا يوجد في كثير من البلدان والجامعات معهد ككلية الطب في مصر مرَّت عليه صروف الزمان ما بين رفع وخفض وتردَّدت فيه لغات مختلفات ما بين ضادٍ وغير ضاد . ولا كمثله معهد صمد للحوادث فأدى للوطن والانسانية رسالة صيغت من جوهر العلم في أطار من الاخلاص بل ولا كمثله في مصر معهد توطدت بفضل الله الآن أركانه وثبت بنيانه وقد عمت به على كرِّ الشهي وفرّ السنين خير التعاليم والتقاليد

كلوت بك ومحمد علي الكبير

من مائة عام وأثنى عشر عاماً هبط مصر طبيب شاب من أبناء بلدة مونبيليه بفرنسا شاءت المقادير أن يجيب دعوة محمد علي جد فاروق الأكبر في أوائل سني حكمه وأن يقاسمه بمستقبله في مصر بلد الآثار والعجائب التي كانت ذكراها لا تزال حية في قلوب الفرنسيين وأنكاهم بما حمله نابليون وعلماؤه من أوصافها وجمالها

هذا الطبيب الشاب — أنطوان برتلمي كلوت — الذي اشتهر باسم كلوت بك يقف في التاريخ بجانب سيده — على الرغم من قصر هامتيهما — كعملاقين بين الرجال أمكنهما تغيير صفحة الطب في هذه البلاد تغييراً عظيماً بعد أن بلغ الحضيض في عهد المماليك حتى كاد لا تكن معابدها بمصر ومعاهدها المهد الذي فيه نشأ ونما وترعرع أيام طيبة ومنفيس وهليوبوليس واسكندرية والقاهرة في عهد الفراعنة والبطالسة والعرب

جاء كلوت بك مصر والكوليرا تفتك بالألوف في كل عام والطاعون قد سكن الدور من أكواخ وقصور بل وأقام في الثكنات العسكرية التي كانت تعج بجنود الوالي المجيشة لتأسيس ملكه وتوطيد دعائم عرشه . وليس في البلاد غير رهط جاهل من الحلاقين الذين نرى الى اليوم

بقاياهم . وغير نفر قليل من رجال الطب الاجانب . فكانت مهمة قاسية تلك التي جابهت كلوت بك ان ينظم الخدمة الطبية والصحية في بلاد هذه حالتها وان يحمي الاهلين كما يحمي الفيالق من عدو غير منظور ليس لخرزهم أو مدافعهم به قبل أو سبيل

ولكن سرعان ما بدا لكلوت بك انهُ وان استطاع جلب جهابذة الاطباء من فرنسا وانكلترا لخدمة الوالي وأسرته وجيشه فان قلة عددهم وجهلهم لغة البلاد واختلاف معتقدهم الديني عن اهلها عوامل تقف حائلاً دون الغرض الذي يبتغيه من تعميم وسائل التطبيب والتصحيح . وان اولئك الاطباء من ابناء الغرب محتاجون الى مساعدين من الاطباء والصيادلة ابناء مصر بل الى ممرضات ومولدات من بناتها

وهكذا وعلى الرغم من دسائس الحاقدين وانتقاد الياسين وقلة ثقة البعض في استعداد المصريين وبفضل تشجيع سيده العبقري العظيم وبعد سنتين اتتين من حلوله الديار أنشأ في سنة ١٨٢٧ مدرسة لتعليم الطب وألحقها أول الامر بالمستشفى العسكري في أبي زعبل . ومن ثمَّ نقلها بعد ذلك بعشرسنين الى مقرها الباقي الى الآن بجوار قصر العيني . وهو الآخر كان في الزمان السابق خارج المدينة قصراً للولاة الاتراك ثم اختاره اطباء حملة نابليون زماناً داراً لعلاج جرحاهم ومرضاهم

وبفضل مثابرة كلوت بك واخلاصه لوطنه الثاني تمكن من احداث ما كان يعد العجوبة في ذلك الزمان فجند الطلبة من بين الازهريين يطعمون ويكسون وينامون ويؤجرون من جيب الدولة الجديدة . وتترجم لهم المحاضرات من الترلسية الى الايطالية فالعربية على لسان عنحوري المترجم السوري الوحيد في ذلك الزمان الذي كان يعرف الايطالية . والشيخ محمد العطاري الازهري الذي أختير لتهذيب لغة المحاضرات والمؤلفات بل للتدريس أيضاً الى ان أدخل تعليم اللغة الفرنسية لتسهيل مهمة الاساتذة

وما ان مرت خمس سنوات على انشاء مدرسة الطب حتى صار يخرج منها عدد من الاطباء يكفي المستشفيات والجيش . وفي عشر سنوات بلغ عدد المتخرجين ٤٢ طالباً جازوا بجدارة الامتحانات التي كانت تعد علنية في ذلك الزمان . حتى لقد شاء كلوت أن يدل على مبلغ نجاحهم فسافر في عام ١٨٣٢ بفرقة من المتخرجين الى باريس حيث نجحوا بتفوق أدهش ممتحنيهم الذين كانوا صفوة اساتذة ذلك العصر كدجنيت ولارى طبيبي نابليون الشهيرين ودوبوترين وبروشيه وسواهم . وظلوا بعد ذلك زماناً في باريس يزيدون من خبرتهم ومعلوماتهم وصاروا طليعة لسواهم من اطباء مصر في القرن الماضي

والى ان مضى محمد علي الى رحمة مولاه بعد ١٨ سنة من تأسيس مدرسة الطب كان قد بلغ عدد الجيل الجديد من الاطباء المصريين نيف و ١٥٠٠ . وكانت قد تمت ترجمة ٥٢ مؤلفاً

طبيًّا من الفرنسية الى العربية ثم نقلت اخراجها دار الطباعة في بولاق بالآلاف وانتشرت نسخها في تركيا والجزائر وتونس ومراكش وسوريا وايران . وصارت تعبيراتها اساساً للمؤلفات التي يقرؤها الاطباء الآن في مدارس الطب في استانبول ودمشق وسواها

ولكنهُ ما ان تولى ابراهيم عرش ابيه سنة ١٨٤٨ فقدته البلاد بعد قليل ثم تولى بعده عباس الأول حتى دخلت مدرسة الطب في عهد جديد كان عهد تقلقل واضطراب اذ كان عباس يمقت الاجانب ولا سيما الفرنسيين وكل ما كان لهم به صلة فاعتزل كلوت بك منصبه في ابريل سنة ١٨٤٩ بعد ربع قرن انشأ خلالهُ غير المدرسة الطبية مدرسة للصيدلة وللمولدات كما أسس المستشفيات في انحاء القطر وأوجد نواة مصلحة الصحة السومية ومصلحة الذكور تثنيات وأدخل التطعيم ضد الجدري وتشريع الجثث لتعليم الطلبة وأوجد لنظام الحلاقين الصحيين الذي بدأ يختفي الآن

وما ان رحل مؤسس مدرسة الطب المشيد حتى استخدم عباس الاساتذة الالمان ومن حسن الحظ انهُ استخدم اولهم جرينجر سنة ١٨٥٠ وتيودور بلهارس اللذين كانا من خيار العلماء وللأول منهما فضل اكتشاف دودة الانكلستوما كما ان للاخير خاصة اكتشاف الدودة التي تسبب البول الدموي الشهير بين المصريين واطلق عليها اسم (البلهارسيا)

وجاء في النهاية دور جرينجر فسافر مكوداً سنة ١٨٥٢ وخلفهُ الكسندر ريمر الالماني زمناً ولكن سرعان ما ضاق صدر عباس بالالمان فجرب الايطاليين واستقدم راتش ورازي من فلورنسا سنة ١٨٥٤ . ولكنهُ ما عتم ان مات في نفس ذلك العام وخلفهُ سعيد الذي وجد المدرسة على أسوأ حال من الفوضى فأغلقها وشرد طلبتها ايدي سبا بين فيالق الجهل وفرقه

وظلت بمدرسة الطب زائلة عن الوجود بعد ذلك طوال عامين الى ان أسرع كلوت بك الى مصر لانقاذها ونجح مساعدة رازي في حمل الوالي على اعادة افتتاحها في سبتمبر سنة ١٨٥٦ تحت ادارته مرة اخرى . ولكن سوء صحته أبعده ثانياً عن المعهد الذي احبه أكثر من اولاده

وتولى من بعده ادارة المدرسة ثلاثة من بني وطنه واحد الاطباء المصريين الى ان تولى اسماعيل عرش جده سنة ٨٦٣ فوجدها مرة اخرى على شيء غير قليل من الانحطاط والتقهقر

محمد علي البقلي والخديو اسماعيل

وهنا برز في الميدان محمد علي البقلي باشا الطبيب المصري الشهير فتولى ادارة المدرسة ستة عشر عاماً سويًّا كانت درة في جبين الادارة الوطنية اذ رفع من شأن المدرسة وأصلح أمورها وكان الاساتذة جميعاً من ابناء البلاد ما عدا جاستنل المعروف وكانت لغة التدريس العربية

وفي زمانه ترجمت أمهات المؤلفات الفرنسية الحديثة وصدرت مجلة البحوث الطبية الأسبوعية عدة سنين وأرسلت البعثات بانتظام الى الخارج وبرز الأطباء المصريون الى البحث والتحقيق العلمي وبالجملة بلغت المدرسة شأواً عظيماً الى ان شاء سوء حظها للمرة الثالثة أن تصاب بلطمة أليمة بتقاعد محمد علي البقلي سنة ١٨٧٩ أثر خصام شخصي بينهُ وبين علي باشا مبارك الشهير فتولى الادارة بعده جيلاردو بك وسرعان ما حدثت الثورة العرابية بعد ثلاث سنوات

عيسى حمدي والخديوي توفيق

وفي سنة ١٨٨٣ تولى ادارة المدرسة مصري قدير آخر هو عيسى حمدي باشا الذي يمكن اعتباره المؤسس الثاني لها بعد كلوت بك، ففي عهده سادها النظام واستتب العمل على خير الوجوه. وكان من اساتذتها نفر من كبار الاطباء المصريين مثل عثمان باشا غالب الذي كانت لهُ شهرة عالمية واكتشف دودة القطن ووصف دور حياتها. ودري باشا سيد الجراحين في زمانه. وبفضل عيسى حمدي ونفوذه صار انشاء المباني الجديدة في المدرسة سنة ١٨٨٧ وأنشئت بها غرف للمحاضرات ومعامل للبحث وأخرج الطلبة من المدرسة للمبيت في الخارج. وفي تلك السنة صارت البكالوريا شرطاً للدخول في سلك المدرسة وفرضت المصاريف على الطلبة لتعليم ١٥ جنيهاً في السنة. وحُتِّم عليهم ان يقدموا رسالة قبل حصولهم على الدرجة الطبية وجعلت مدة الدراسة ست سنوات للطب وأربع للصيدلة وثلاثاً للتوليد وبالجملة دخلت المدرسة تحت يده الحكيمة في عهد جديد من التقدم والارتقاء لا تزال آثاره باقية الى اليوم وعاونهُ من الاطباء الانجليز بعض اكابرهم كساندويث وملتون الجراح الشهير. ولكن عيسى حمدي اضطر بدوره للاستقالة سنة ١٨٨٩ أثر خلاف بينهُ وبين رئيس الادارة الطبية بعد ست سنوات مجيدة الذكر والأثر

وللمرة الرابعة عادت المدرسة الى الانحطاط في عهد خلفه ياعث المحسوبية في وظائفها الى ان تولى شأنها ابراهيم باشا حسن سنة ١٨٩٣ وقد كان رجلاً فاضلاً ولكن حدث في عهده تنظيم المدرسة على الطرق الانجليزية وزيادة الاساتذة الانجليز وتحويل لغة التعليم الى الانجليزية حتى انفرد بادارتها الدكتور كيتج من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٩

عهد الاحتلال الانجليزي

وكان كيتج رجلاً حديديًّا في ادارة المدرسة ولكن قساوته الظاهرة ما كانت لتحجب شديد اهتمامه بشأنها وهمة خريجيها في كل مقام ومقال. وقد بلغت المدرسة في عهده وعهد

مساعديه من الاساتذة البريطانيين شأواً غير قليل من النظام والدقة، ولا يزال الكثيرون من خريجي ذلك العهد يذكرون بالخير ملتون ومادن ومرجوسن وفيليبس وسواهم كما يذكرون ثمت ولوس من كبار الاساتذة الالمان الذين كان وجودهم في هذا العهد آية للصلة القديمة بين هذا المعهد وبلادهم

وفي هذا العهد توثقت الصلة بين مدرسة الطب في مصر والكليات الطبية الملكية في انجلترا ووضع النظام الذي لا يزال قائماً من بعث تلك الكليات لاستاذ زائر في كل عام

وقد اقتصرت المدرسة في هذا العهد على الدراسة الطبية الأولى فلم تدخل عليها درجات الاختصاص العليا التي كان المصريون يلجأون للحصول عليها الى خارج بلادهم

سعد زغلول ومدرسة الطب

وقد حدث في أثناء ذلك العهد تولي زعيم البلاد المغفور له سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٨ فرأى بثاقب بصره زيادة ارسال بعثات التخصص الى الخارج لادخال العنصر المصري في التدريس وبالتالي لادخال العربية لغة للتعليم في مدرسة الطب اسوة بزميلاتها في المدارس العالية . واليه يرجع أول الفضل في اعادة مدرسة الطب سيرتها المصرية الاولى في عهدنا الحديث كما نراه الآن في شخص أغلب اساتذتها ومساعديهم

الحرب العظمى وما بعدها

وساعد على ذلك أنه حينما اندلعت ألسنة الحرب العالمية العظمى وانتظم أغلب الاساتذة الاجانب في جيوش بلادهم وقع عبء التدريس على اكتاف المصريين فقاموا بالعمل خير قيام حتى رضي كيتنج ان يجعل منهم رؤساء غير مرؤوسين

وسافر كيتنج سنة ١٩١٩ وعضهُ رتشاردز الى سنة ١٩٢٤ في سني الثورة المصرية الحرجة وفي ذلك العهد خرج التفكير في انشاء الجامعة المصرية الى حيز العمل وصار اختيار موقع مستشفى فؤاد الأول الجديد في جزيرة الروضة ووضعت سياسة تولي المصريين مناصب الاساتذة نهائياً في كلية الطب

وجاء من بعده ولسون ثم مادن سنة ١٩٢٦ وفي عهده أعيد تنظيم الكلية على الطرق الحديثة وأدخل في برامجها الدراسات العليا وانشئت مدرسة لطب الاسنان ووضع الاساس الذي نهضت به الكلية النهضة العظيمة الحالية . ومات مادن سنة ١٩٢٩ مأسوفاً على خلاله وخصاله وفي مايو من تلك السنة شاء مجلس ادارة الكلية ان يبقي على كاتب هذه السطور حمل ذلك

الطب الخطير الجليل مترسماً في ذلك خطوات زملائه السالفين مستلهماً السداد من ارواحهم في عهد تاريخي كبير الأثر في حياة هذه البلاد

٢ — الحاضر

مضى القرن الاول من حياة مدرسة الطب وهي كما وصفت تبدو احياناً مشرقة وضاحة الجبين ثم يسترها الغمام ولكن الى حين . ولعمري انه اذا قيست حياة المعاهد بحياة الانسان واذا شبهنا تلك المائة عام بعهد الطفولة ما كان لنا ان نعجب لما ذاقت تلك المدرسة من مرّ وحلو لأن للطفولة امراضها وعللها كما لها نشاطها ومرحها واننا لنا ان نقرّ عيناً ونستريح خاطراً انها قضت ذلك العهد على ما يرام وصار لنا ان نتنظر لها عمراً مديداً وعيشاً رغيداً في ظل النهضة المصرية الحديثة

ولقد كتب الله لمدرسة الطب بالفعل دخول عهد الشباب مذ صارت في عام ١٩٢٤ كلية بل دعامة هي اقوى دعامات الجامعة المصرية . وكما ينتظر من دم الشباب قد اندفعت فيها روح جديدة ووصلت سراعاً الى آفاق أعلى وأسمى

فهي الآن كلية تضم تحت جناحيها اربعة معاهد كبيرة لدراسة فنون الطب وعلومه . فللطب واحدة ، وللصيدلة اخرى ، وللاسنان مدرسة ، وللتمريض والتوليد رابعة

وصار لا يكتفى بالبكالوريا بل على الطالب ان يزود من كلية العلوم بقسط علمي ثمين لمدة عام وان يبرز بين اخوانه حتى يصل الى ساحتها البناء

واستكملت كل مدرسة منهن أهبتها وجاهزها . ففي مدرسة الطب تغير الانكماش القديم الى انبساط قضى به تقدم المعارف الطبية فانقسم علم التشريح الى فروع منها علم الاجنة وعلم تقويم الانسان وانقسم علم وظائف الاعضاء الى الكيمياء الحيوية والتشريح المجهري وبرز علم الامصال كفرع قوي من فروع البكتريولوجيا وانقسم علم الطفيليات الى علم الطفيليات ذات الخلية الواحدة وعلم الديدان وعلم الحشرات وعلم الفطريات . وأدخلت دراسة جديدة لعلم الباثولوجيا الاكلينيكية التي تنير الطريق امام الطبيب بفحص افرازات المريض ودمائه . وظهرت في الجراحة أقسام للعظام وللجهاز البولي والنساء قسم جديد للصحة العامة شرع هو الآخر يتفرع الى اقسام التغذية والصحة الصناعية والاوبئة وما اليها . هذا فضلاً عما بلغته المدرسة من الشأو في تدريس الامراض الباطنة وامراض العيون

وارسلت الكلية البعثات تلو البعثات بما لم يكن له من قبل مثيل من بين ابنائها النجباء للتخصص في تلك الفروع وسواها فبزّوا رفقاءهم في عقر دارهم وعاد ولا يزال يعود الكثيرون ممتلئين حماسة وملتهبين غيرة ونشاطاً

وبلغ الحال مثل ذلك الحال في مدرسة الصيدلة التي انتهى فيها علم تشخيص العقاقير واتسع نطاق التحليل الكيميائي للأدوية والأغذية . وأما مدرسة الاسنان فقد سدت فراغاً عظيماً كان محسوساً في هذه البلاد وقضت على عهد كان بالنسبة لها مذموماً

وأما مدرسة التمريض والتوليد فصارت طالباتها من ذوات الشهادات المدرسية كالابتدائية والدراسة الثانوية في قسمها الاول وراسيات القسم الثاني وبعدان كانت تضيع سنة كاملة في تعليمهن اللغات والحساب تمهيداً لدخولهن معهد التعليم الطبي صرن يتلقين فنون التمريض ثلاث سنوات كاملات ثم فن الولادة عاماً آخر والزائرات الصحيات كذلك عاماً آخر والتدليك والكهرباء الطبية ستة وتصف

وصار للكلية غير درجة الطب والجراحة او الصيدلة او الاسنان العادية درجات عليا ودبلومات للاختصاص . فهناك درجة ماجستير في الجراحة بفروعها وهي : —

١ — الجراحة العامة ٢ — جراحة الاعضاء التناسلية والمجاري البولية ٣ — جراحة العظام ٤ — التوليد وامراض النساء ٥ — جراحة الحنجرة والانف والاذن ٦ — الرمد وجراحة العيون

ودرجة دكتوراه في الطب بأقسامها وهي : ١ — الطب الباطني العام ٢ — امراض الطفولة الاولى وامراض الاطفال — ٣ — طب المناطق الحارة ٤ — الصحة العامة

ودرجة ماجستير في جراحة الاسنان ودرجة ماجستير في الصيدلة ودبلومات خاصة هي : —

١ — دبلوم الصحة العامة ٢ — دبلوم طب المناطق الحارة وصحتها ٣ — دبلوم الرمد ٤ — دبلوم الطب الشرعي ٥ — دبلوم علم الاشعة الطبية

وستنشأ دبلومتان خاصتان للكيمياء التحليلية والكيمياء الحيوية

بل أن هذه السنة نفسها قد رأت انشاء قسمين جديدين كبيرين للتخصص احدهما في الجراحة والآخر في الامراض الباطنة وصارت الفرصة بذلك متاحة لكل طبيب مصري او غير مصري ان يستزيد من علمه ويتمكن من قمة احدث طراز ونظام وأن يحصل على تلك الدرجات العالية في نفس وطنه وبلاده

وصار لكل قسم من اقسام الطب من المعامل والمتاحف ما تعز به الكلية سواها من كليات الخارج وهي ثروة عظيمة لا تقوم بمال ولا عتاد ولا يقاس بها غير المتحف المصري أن كان يقاس سعد احياء بمعهد اموات

اما مستشفى قصر العيني فقد تحول الى دار علاج نظيفة كاملة الادوات والمعدات حتى لتخفى هويته الآن على كلوت بك ذاته وهو الذي ذرعهُ نيفاً وعشرين سنة حيثةً وذهاباً في القرن الماضي ولم يغير قصر العيني من إهابه فحسب بل تغيرت معالمهُ ومعداته الداخلية لراحة المترددين عليه من طلبة واطباء ومرضى . وفتحت به اقسام جديدة لفروع الطب الجديدة

وتضاعفت به حجر العمليات وأنشئت مساكن جديدة للنواب وغرف محاضرات غير ما زاد منها في مباني كلية الطب جارته

بل ان الطلبة ذاتهم قد اصابهم التغير والتبديل فظهرت بينهم الطالبات لدراسة الطب اسوة بدراسة التمريض والتوليد وأمثالهم فلم يضم شتاتهم ويقيمون به حفلاتهم وزاد عددهم وتوثقت صلاتهم باساتذتهم

بل ان ذلك التجديد العظيم لم يكن ليشفي سغب النفوس المتعطشة الى التقدم والارتقاء. فصح العزم على انشاء مستشفى جديد ومدرسة جديدة في جزيرة الروضة بشد ان أزر المعهدين القديمين المجاورين وقد تم بالفعل انشاء جانب كبير من مستشفى فؤاد الاول التعليمي ونقلت اليه العيادة الخارجية التي يؤمها نيف واربعة آلاف مريض كل يوم كما نقل اليها منذ بضعة اسابيع ٤٥٠ سريراً للامراض الباطنة. فاذا استكمل صار به الفان من الاسرة غير الالف الباقية في قصر العيني وغير مائتي سرير في مستشفى الاطفال الذي اشترته الحكومة لحساب التعليم ومائتي سرير في مستشفى كشنر اي ٣٤٠٠ سرير مما ليس له مثال ولا ضئو في عالم الشرق وكثير من جهات الغرب جميعاً

على ان عظمة المعاهد العلمية لا يجب ان تقاس بضخامة مبانيها وكثرة اسرتها ونفقاتها وانما هي في الحقيقة بكفاءة رجالها. واذا كنا قد أعددنا للعلم الطبي في مصر داراً شامخة الذرى فيجاء واسعة فأنا لم نكن لننسى ان العلم والبلاد يتطلبان من ذلك الغرض محصولاً يانع الثمرات

ولذا فان تلك المعاهد لم تبنَ للتطبيب والتعليم فحسب، بل كذلك لاجراء المباحث العلمية التي هي مناط التفاخر اذا سوقه قامت. وقد بدىء بالطلاب فجهزت جوائز ثمينة ذهبية ومالية للمبرزين منهم. فهناك ماديات ذهبية باسم عيسى حمدي باشا للامراض الباطنية وعلم وظائف الاعضاء وأخرى باسم مادن للجراحة الاكلينيكية وباسم فيليس للطب الباطني الاكلينيكي وجائزة مالية باسم محمد شاهين باشا للتخصص في الصحة العامة ومثلها باسم مظلوم للصيدلة وباسم بحري كذلك. وصندوق آلات جراحية يهديه محل كلان الفرنسي في كل عام الى أول الطلاب المتخرجين ومدالية ذهبية في الجراحة باسم علي ابراهيم

وتيقنا بالمتخرجين فصار لا يدخل الطالب عداد المدرسين حتى تمضي عليه سنوات في الاستزادة من الدرس والتمحيص وحتى ينال أرقى الشهادات كالدكتوراه في الفن الذي يتنبه وحتى تشهد له اساتذته بالاستعداد والكفاءة وصار لا مطمع لناشيء أن ينال ترقية الا اذا أوفى في يمينه عدداً غير قليل من الابحاث الفنية الطريفة التي نشرها له الجامعة أو المجلات المصرية والاجنبية يشق بها طريقه الى الامام

وجعلت الكلية لا تضن بالاجازات الطبية في الخارج كما لا تضن بارسال البعوث وجعلت تدعو كبار الاساتذة الاجانب في كل شتاء ليحاضروا الاطباء والطلاب في اطراف المواضيع بل اخذت اخيراً في ارسال بعوث من الطلبة ليحضروا اسبوعاً او اسبوعين في احدى الجامعات الخارجية وبدأت بجامعة باريس في الصيف الماضي ليتعارفوا وتتفتح اذهانهم وتخيلاتهم وليعرفوا ان العلم لا دين له ولا وطن ولا لغة وان الذين يقفون حياتهم عليه هم المفلحون

كذلك زادت الصلة بالكليات الطبية الملكية بكثرة وفود الطلاب المصريين للحصول على شهاداتها العالية القيمة . بل لقد تم اتفاقنا مع الكليات الالمانية أن توفد الينا طلاباً للتعلم في بلادنا وان نوفد اليهم مقابل ذلك من اطبائنا من يكونون من طلبة الدراسات العالية ويعرفون اللغة الالمانية

وقد وصلت الامور من التقدم ان كثر في البلاد عدد الاختصاصيين وانقضى العهد الذي كان تطبيب العائلات فيه وقفاً على الاجانب يتباهون به ويتفاخرون . وصار الاطباء المصريون علماً على نهضة بلادهم يشرفونها في اي مؤتمر حلوا واي محفل نزلوا

ويعييني الحد اذا شئت ذكر النابغين منهم في فروع الطب ونواحيه . اما الابحاث الطبية التي وصل اليها هذا المعهد الجليل في دراساته المتعاقبة الى الآن فما يفخر به اي معهد في اي مكان . واذا كان قد اشترك في بعضها الاساتذة الاجانب في العهود الماضية كاكتشاف الانكستوما والبلهارسيا ودورة حياتهما فأن الجيل الجديد والحمد لله قد كذب الخطأ الذي طالما اشاعه المغرضون من ان العقل الشرقي قد اصابهُ الخمول والكسل . وهذه ابحاث علمائنا في امراض بلادهم تكشف المكنون وتهتك المستور . فهذا باحث عن اسباب حصوات الحالب وآخر عن داء الفيل وثالث عن مناعة الطفيليات وآخر عن تضخم الطحال وأمراض القلب وآخر يفحص الاعشاب المصرية والاغذية المصرية والحشرات المصرية وغيره يبحث عن امراض الكبد والشرايين والرمد . وسواهم يفحص دم المصريين وغير ذلك مما لا تحيط به مثل هذه النجالة . ومما يقوم دليلاً على ان المعهد القديم قد انجب ابناء يسيرون في الطريق مع سواهم من علماء العالمين ولا تضيرهم وعثاء السفر بل يسعدون وينهأون اذا زادوا حرفاً في قاموس الفن الشريف الذي جعلوا منهُ قوت يومهم وقوت نفوسهم معاً

٣ — المستقبل

قد مضى على كاتب هذه السطور الثماني السنوات الاخيرة وقد امتزجت فيها حياته امتزاجاً شديداً بالمعهد الذي فيه ربي ومنهُ خرج واليهِ عاد ليقضي بقية حياته العاملة جندياً ثم قائداً . واكبر أمله الآن ان يرى بعينيه تنفيذ الخطة التي ترسمها اسلافه الآخرون والتي اقتضاها

تقدم العلوم الطبية يوماً بعد يوم تقدماً لم يخطر ببال جرّاح ولا جرى على ذهن طبيب

ولكن هناك غير هذا العامل الشخصي اموراً اجل خطراً واكبر قيمة تجعل من الواجب جعل هذا المعهد في صورة مثالية تشرف البلاد

فمصر هي قائدة الشرق تتطلع اليها اعين الاقطار العربية الشقيقة وهي في الوقت نفسه ملتقى القارات القديمة الثلاث بعبر ارضها ومياهها وهواءها المسافرون والتجارة من جانب العالم الى جانبه الآخر . وفيها تمثلت حضارة الفراعنة وحضارة العرب وحضارة اوروبا معاً . وما احرى وطننا وهذا شأنه ان يكون بلداً نموذجيًّا في اهله ومعاهده ونظمه جميعها

ولقد استيقظت البلاد وحكامها وعلى رأسهم الملك العظيم الراحل فؤاد الأول الى هذه الحقيقة كل التيقظ ، فلم تضن بالمال على دراسة الطب حتى لقد قررت نيفاً ومليونين من الجنيهات لانشاء مستشفى فؤاد الاول وكلية الطب الجديدة وتحسين قصر العيني وكلية الطب القديمة وشراء مستشفى رعاية الاطفال بالنيرة وقد صرف من ذلك الى الآن مبلغ مليون ومائتي الف من الجنيهات

اما الخطة التي رسمناها للمستقبل فستفضي الى تخصيص قصر العيني لذوي الامراض المستعصية ولأقسام التخصص والى تخصيص مستشفى فؤاد الاول للامراض المعتادة من جراحية وباطنية وسائية وعيون . وان تقسم كلية الطب الى جزئين احدهما ينقل الى المباني الجديدة ويشمل اقسام البكتريولوجيا والطفيليات وعلم التشريح المرضي وعلم الاقرباذين وهي علوم ذات صلة وثيقة بالمستشفى

اما القسم الباقي فيوزع على مباني الكلية الحالية فيخصص المبنى الشمالي لانشاء معهد للصحة العامة مستكمل لمعامل فحص المياه والاغذية والمتخلفات واجراء التجارب البكتريولوجية والكيميائية ذات الصلة بذلك الفرع الهام من العلوم الطبية

ويخصص المبنى المواجه له في الجنوب الذي يليه لعلم وظائف الاعضاء بفروعه الثلاثة والمبنى الجنوبي الذي يشيد الآن لمدرسة الصيدلة . اما المبنيان الغربيان فيخصص احدهما للطب الشرعي في دورين فوق نادي الطلبة ويخصص الآخر بأدواره الثلاثة لعلم التشريح بتاحفه ومشرحته ومعامله . وسيضاف اليهما مبنى سابع يؤوي ادارة الكلية ويهوأ للاجتماعات والاحتفالات

وهكذا نجد الاقسام المختلفة جميعاً سبيلاً الى الاتساع بما يؤمل ان يكفيها حقبة طويلة اخرى من السنين وييسر لها سبيل البحث العلمي في هذا العهد الحديث . وتقضي خطتنا المرسومة ان يتسع مستشفى رعاية الاطفال الذي ضمته الجامعة أخيراً الى مستشفياتها التعليمية فيبلغ مائتي سرير . وان لمعهد مستشفى كتشنر بعد اتفاقنا الاخير مع مجلس ادارته لتعليم طالبات الطب فنون ذلك العلم وان ننشىء في مدرسة الطب الجديدة معهداً كاملاً ينقطع علماؤه للابحاث انقطاعاً ليحلوا الكثير من المعضلات الطبية والصحية التي تجابه الاطباء والبلاد الآن وفي المستقبل

بل انا لن يستريح لنا خاطر أو تطمئن نفوسنا حتى نشهد بجوار هذه المعاهد كلها معهداً لطب المناطق الحارة . فمن عجب ان طالباً مصرياً يود التخصص في هذا الفن لا يجد مندوحة عن السفر الى اوربا بينما بلاده ذاتها هي في المناطق الحارة . بل انه لمن العجب ان طالباً انجليزياً او فرنسياً او المانياً او ايطالياً يرغب في تلك الدراسة فلا يجد في مصر المدرسة التي تشفي غليله فيحج اليها كما يحج طلابنا الى اوربا للدراسة في الفنون الطبية الراقية بها

ولا شك ان موقع مصر الجغرافي يتيح فرصة نادرة لتلك الدراسة فأنه فضلاً عن المرضى من بحارة السفن القادمة من الشرق الاقصى وركابها وهم الذين يغذون مدارس طب المناطق الحارة في ليفربول وهامبورج ومرسيليا ولندن والجزائر بمادة التعليم توجد امراضنا المتوطنة ذاتها من بلهارسيا وانكلستوما وملاريا وداء الفيل والديدان المعوية وتضخم الطحال والبلاجرا وهي من اهم امراض المناطق الحارة

وقد شرعنا بالفعل في الاتصال بأولي الامر في هذا الشأن مؤملين قريباً انشاء معهد لطب المناطق الحارة يحمل اسم الزعيم الراحل الذي كان له فضل تقوية العنصر الوطني في مدرسة الطب من ثلاثين عاماً . ونود ان نرى فيه الطالب المصري بجانب الطالب الانجليزي او السوري او الفرنسي او الالماني او الايطالي في مدرج واحد ومعمل واحد ويحاضرهم الاساتذة المصريون فيا هم فيه ثقة ومرجع

أن هذه الصورة التي ذكرتها لكلية الطب وفروعها كانت في الواقع صورة مثالية خيالية من عدة سنوات ولكنها قد تحققت في كثير من نواحيها . ويبدو المستقبل واضحاً بساماً لاتمام نواحيها الاخرى

فكلية الطب قد دخلت الآن في عهد تاريخي آخر يشبهُ في علوّ شأنه العهد الذي خلقها فيه كلوت بك خالد الذكر الذي يقف تمثالهُ في ساحتها الى اليوم وفي باب مستشفاها امام تمثال سيده العظيم وعلى وجهيهما دلائل البشر لما يشاهدون

وصار العالم جميعاً ينتظر منها ومن اساتذتها ومساعديها وطلابها شيئاً آخر غير مجرد اتقان حرفة التطبيب . انهُ يتطلب منهم البحث والاستقصاء وشحذ الفكر في اكتشاف اسرار الجسم السليم والجسم العليل

ان الصورة المثالية التي اوجوها لهذا المعهد الجليل في مستقبل ايامه هي ان يصل فيه التخصص الى أرقى نواحيه وان يكون اكبر معهد في الشرق للعلوم الطبية وان تكتظ مراجع المؤلفات والرسائل الطبية باسماء علمائه المصريين وان يخفف آلام الانسانية بفضل اكتشافاته وابحاثه وانهُ بذلك لجدير وعليه لأمين ان شاء الله